

## اكتساب اللغة العربية الفصحى وتقلص الازدواجية

أ. زبير الخليل دندان

### ١. المدخل

تسعى هذه الدراسة لإبراز الدور الأساسي والحاسم الذي يلعبه اكتساب اللغة الأولى، لغة الأم، وما يترتب عن ذلك من تفاعل طبيعي مع المحيط تماشياً مع النمو الذهني لدى الطفل في السنوات الأولى من عمره. ولكن سرعان ما يبدأ هذا التطور المعرفي بالارتباك والتباطؤ عند الطفل العربي جرّاء إشكال اللغة وهي من أهم الأسباب التي تؤدي إلى تدني المستوى في التعليم العام؛ فمن المعلوم أنّ الفصحى لا تُكتسب كلفة أولى في المجتمعات العربية ممّا يُسبب للطفل ضعفاً ملحوظاً عند التحاقه بالمدرسة حيث يأتي بلهجة محلية لا تُعينه على استيعاب العلم والمعرفة بسهولة، خلافاً ما يحصل عند الطفل الإنجليزي أو الفرنسي مثلاً... ذلك أنّ اللهجة العربية تختلف إلى حد كبير عن لغة المدرسة وكأنّها لغة ثانية، في حين أنّ اللهجات الإنجليزية أو الفرنسية ولغات أخرى قريبة جداً من اللغة المعيارية والرسمية.

خاصة في عصرنا هذا، من اللغات التي انتشرت وغزت مناطق بعيدة عن موطنها نتيجة أسباب تاريخية واقتصادية وغير ذلك. وكذلك انتشرت اللغة العربية في بقعة كبيرة من العالم منذ القرن الأول الهجري لإبلاغ دين الإسلام الحنيف، ثمّ بنشر العلوم المختلفة لقرون عديدة كعلوم اللغة والفلسفة والطب والفلك والكيمياء والرياضيات، إلخ... وفي هذا الصدد، يقول الدكتور عبد الله الدنان في كتابه تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة (٢٠١٠ ص. ٩٠):

فقد اعتمد العرب اللغة العربية لغة العلوم كلها منذ عهد النبوة وحتى عصرنا الحاضر. كتبوا بها علومهم الدينية والدنيوية، وترجموا إليها علوم غيرهم وحملوها معهم إلى الشعوب الأخرى، حتى أصبحت على مدى أكثر من عشرة قرون لغة العلم الرئيسة في العالم كله.

إلاّ أنّه بالرغم من وجود تلك اللغة نفسها في عصرنا، بنظائرها وقواعدها في

عملية شاملة تحتاج إلى توعية الناس ومشاركتهم، بما يفهم أولياء الأطفال، محيطهم والسياسة اللغوية والمجتمع. ب. تعليم وتعلّم العربية الفصحى كلفة شبه ثانية للأطفال الذين تجاوزوا عتبة الاكتساب اللاشعوري بفرض تقلص فجوة الازدواجية.

### ٢. اللغة العربية الفصحى وتحدي الازدواجية

لكل دولة لغة معيارية رسمية يتعامل بها أفراد المجتمع في أمورهم اليومية معبرين بها عن شؤونهم، ويدرسونها ويُدرسونها في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، ويكتبون بها رسائلهم سواء على الورق أو عن طريق الهاتف والشبكات الاجتماعية، كما تصدر بها كتبهم وجرائدهم، وينمو عن طريقها اقتصادهم وسياساتهم وعلمهم... فكذاك تتطور وتقوى لغات العالم بتفعيلها واستعمالها في شتى المجالات؛ فالإنجليزية مثلاً،

فعلی أساس الملاحظة الميدانية لإشكال استعمال اللغة وعدم الفصاحة في مجتمعاتنا ومدارسنا، يهدف هذا البحث إلى إبراز السبب الرئيس الذي يؤدي إلى هذا الوضع في نظرنا، ألا وهي ظاهرة ازدواجية اللغة العربية. سنتطرق إلى هذه الظاهرة التي تؤثر سلباً على المجتمع، ليس من الناحية اللغوية - التربوية فحسب، بل حتى من جوانب أخرى خاصة الاجتماعية والنفسية. ثمّ نتناول مسألة العلاقة الوطيدة بين اكتساب اللغة والتطور المعرفي عند الطفل منذ السنة الأولى من عمره والتباطؤ في هذا النمو عند الطفل العربي بسبب ازدواجية اللغة.

ثمّ ينتهي البحث بإبداء وجهة النظر في أهمية ارتباط اللغة السليمة والتطور الذهني واقتراح طريقتين لتفعيل الحل الذي نظنّه مناسباً للنهوض باللغة العربية الفصحى:

أ. تعليم وتعلّم لغة عربية فصیحة منذ السنوات الأولى من عمر الطفل، وهذه

واعتماد اللهجة العامية ديموتيكي (Demotiki) لغة قومية فانسلخت الأمة عن الازدواجية تدريجياً وبعد تخفيض قيمة اللغة الكلاسيكية. فأيد الباحث اليوناني سوتيروبولوس (Sotiropoulos ١٩٧٧) هذا القرار قائلًا:

وان تكن الازدواجية، وبشكل موضوعي، أداة بارعة للضرورة، فإنها من وجهة النظر الاقتصادية والتماسك القومي وفعالية التعليم والاتصالات وأجهزة الإعلام لعائق. بالإضافة إلى ذلك، إذا اعتبرنا أن وظيفة اللغة ليست للاتصال وحسب؛ وحقيقة أن اللغة تخدم احتياجات الشخص والمجتمع العاطفية والمعرفية والنفسية، فإن وجود الازدواجية في الجماعة اللغوية لذو آثار محدّدة، بل معقدة لقوتها التعبيرية. الازدواجية رمز وتذكرة للصراع الاجتماعي ونقص التماسك الاجتماعي. ٢

وقد اتفق الكثير من الباحثين اللغويين مع سوتيروبولوس في إشكال الازدواجية كونها ذات " آثار محدّدة" وتبعث على " الصراع الاجتماعي " والنقص في " التماسك الاجتماعي ". وفي هذا السياق، يقول العلامة سعيد الأفغاني (١٩٧١ ص.١٦٠) " ويتولّد في هذا التفكك الاجتماعي تفكك فكري ثم تفكك لغوي منحدر، وهذا هو منشأ اللهجات العامية المحليّة تتجلى أعراضاً مرضية لا تعرفها الأمة في صحّتها وقوتها ووحدها. " فكلمًا كانت اللغة ذات هيبة ومكانة مرموقة لأسباب عدّة، منها التاريخية والأدبية أو الدنيوية والقومية، ويكسبها ذلك قوة مسيطرة، ازدادت لهجاتها العامية ضعفاً وتكتسب وصمة عار خاصة في المواقف غير

للعاميات أن تكتب رسمياً ويُدْرَس بها في المؤسسات التعليمية، زاعمين أنّ اللغة العربية الفصحى معقّدة وجامدة ولا تواكب تغيرات العصر؛ وبعضهم يُفضّل اعتماد الحروف اللاتينية على الكتابة العربية، وذلك رغم التحذير من تحويل تلك اللهجات إلى لغات رسمية مكتوبة في كل بلد الأمر الذي سيؤدّي حتماً إلى سلخ الهوية العربية الأصيلة والتشتت النهائي داخل الأمة!

### ٣. الازدواجية واللغة العربية

إنّ الكثير من الدول تميّز اليوم باستعمال أكثر من لغة واحدة نتيجة اختلاط الشعوب لأسباب مختلفة منها الاستعمار مثلاً أو الهجرة، فأصبحت الأقوام ذوات ثنائية اللغة (bilingual) أو متعدّدة اللغات (multilingual). إلا أنّ هناك بعض المجتمعات التي تميّز بظاهرة ازدواجية اللغة ومنها البلاد العربية. لقد كتبت الكثير عن ازدواجية اللغة منذ ما يقرب من نصف القرن لدرجة أنّ أنجزت أبحاث كثيرة وصدر العديد من المقالات والكتب منها كتاب دُون فيه ماورفرناندث (Mauro Fernandez-١٩٩٢) جلّ ما نُشر عن هذه الظاهرة في الفترة ١٩٦٠-١٩٩٠. ٢ من الأرجح أن يكون اللغوي الألماني كرمباخر (Krumbacher ١٩٠٢) أول من اهتمّ بظاهرة الازدواجية فوصف طبيعتها في اللغتين اليونانية والعربية، ولآثارها السلبية على المجتمع اقترح التخلص من اللغة الأدبية واعتماد العامية لغة قومية؛ وبالفعل صدر قرار رسمي سنة ١٩٧٦ من الحكومة اليونانية يقضي بترك اللغة القديمة كاثاريفوزاً (Katharevousa)

الكتب والمجلات والجرائد وفي المنظومات التعليمية وفي الإعلام المرئي والمسموع، فإننا لا نستعملها في المحادثة اليومية والشؤون العادية، ذلك لأنّ اللهجات العامية حلّت محلّها وأصبحت الدارجة هي لغة التواصل العام بين أفراد الجماعات اللغوية المحلية ويصعب التواصل مع الجماعات المتباعدة للتباين السائد بينها. فإذا سألت فرداً من أفراد المجتمعات الأوروبية ما لغته فيقول الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية، رغم أنّ لكلّ لغة لهجات مختلفة يستعملونها في الحديث اليومي؛ لكنّ ليست تلك اللهجات بعيدة عن اللغة الرسمية أو اللغة القياسية المستعملة في كل ما هو مكتوب وفي وسائل الإعلام والتعليم وما إلى ذلك... وعلى نحو مماثل إذا سألتنا عربياً عن لغته فيقول " أحكي عربي ". لكن شأن ما بين هذا وذاك فإن كانت اللهجات الأوروبية قريبة من اللغات المعيارية أو الرسمية، بل تكاد تكون هي نفسها، فلهجات البلاد العربية تبعد إلى حدّ يبدو بعيداً عن اللغة العربية الفصحى، كما تختلف عن بعضها البعض من بلد إلى بلد، بل من منطقة إلى منطقة في نفس البلد. وهذا عين الإشكال الذي نطرحه في هذا البحث ونحاول تناوله.

إنّ من أعظم التحديات التي تواجه اللغة العربية الفصحى اليوم تكمن في اللغة نفسها، لكن بصيغ وأنماط مختلفة والتي نسميها اللهجات العامية أو الدارجة؛ فلكل بلد عربي عدد يكاد لا يحصى من اللهجات المحلية التي لا تتقيّد بأحكام ثابتة على كل المستويات اللغوية (الصوتي والنحوي وما إلى ذلك...). وممّا يزيد هذا التحدي دعوة الكثير ممن يريدون

العادية. وفعلاً، يشعر كل عربي بالفخر تجاه العربية الفصحى ويعتز بها لكونها لغة القرآن والسنة والتراث الأدبي والعلمي الكبير الذي أنجز بها قديماً وحديثاً، ولا يعتبر لهجته لغة يمكن الارتقاء بها.

اهتمّ بأمر اللغة العربية بعض المستشرقين ومنهم الفرنسي وليام ماسي (W. Marçais ١٩٣١) الذي ركّز عن الفرق الشاسع بين الفصحى والعامية وكان من بين المشجعين لتعليم وتعلم اللهجات أثناء استعمار الجزائر والمغرب بخلفية طمس لغة القرآن وهوية العرب. وشاطره في هذه الرؤية الكثير منهم كولين (١٩٤٥ G.S. Colin) الذي يظهر ضغينته للغة العربية في المغرب قائلاً:

“ بما أنه لا يمكن في الوقت الحالي للعربية الكلاسيكية [الفصحى] ولا للعربية الشائخة [الدارجة] أن تحل لوحدها المشكلة اللغوية المغربية، يوجد خيار ثالث: انتشار الفرنسية، واستخدامه من قبل المغاربة كلغة للثقافة. ”٤

أما تشارلز فيرجوسن C. Ferguson (١٩٥٩، ١٩٧٠...)، الباحث الأمريكي في اللسانيات، كان أول من أدخل المصطلح diglossia في علم اللغة الاجتماعي إذ اعتبر ازدواجية اللغة ظاهرة سوسيو-لسانية تتعلق بوجود نوعين أو من نفس اللغة مُتعايشين في المجتمع اللغوي. إن فيرجوسن هو الأكثر شهرة بالسهر على فهم وتحليل ظاهرة الداغلويسيا في عدد من الحالات في العالم، لكنّه أولى اهتماماً كبيراً للغة العربية وازدواجيتها، فميز بوضوح الميادين التي تُستعمل فيها الفصحى عن الظروف اليومية العادية التي تُسمع فيها اللهجة العامية، وقد اكتفى

بوصف المستويين بدون أي تحيز: التّمط أو المتغايير الأدنى (Low variety) L والتّمط أو المتغايير الأعلى (High variety) H الذي يتمييز بمكانة مرموقة عند أفراد المجتمع حيث يُستعمل في المواقف الرسمية والدينية ووسائل الإعلام والتعليم والأدب وفي كل ما يكتب، وإنّه لا يُكتسب اليوم إلا عن طريق المدرسة. أما اللهجة L فهي لغة الأم المكتسبة بطريقة عفوية يتواصل عن طريقها أفراد الجماعة اللغوية ويُعبّرون بها عن شؤونهم اليومية وشعورهم؛ ولكنّها تقتصر إلى هبة الفصحى وقوتها ونظامها وغزارة ألفاظها. إلا أنّ فيرجوسن أقر بوجود نمط أوسط أسماء اللغة الوسطى (middle variety) يُستعمل في مواقف شبه رسمية أو للحديث عن مواضيع جادة لا يستطيع المتحدثون التعبير عنها بالعامية لظلة الألفاظ والتعبير وضعف البنية والنظام في اللهجات.

أما الباحث اللغوي المصري سعيد بدوي، فقد يرى في كتابه (١٩٧٣) ٥ أنّ الوضع الحالي للغة العربية يتمثل في سلسلة متصلة تضم خمسة مستويات أعلاها فصحى القرآن وأدناها لهجة الأميين، وبينهما أنماط تقتض الألفاظ والعبارات من الفصحى لدرجات متباينة وتقترب منها بذلك. وقد شغلت قضية ازدواجية اللغة العربية العديد من العلماء، خاصة من الغربيين مثل هودسن (Hudson ١٩٩٢) الذي نشر كتاباً أشار فيه إلى إنجاز أكثر من ألف مقالة ومادة علمية خلال العشر سنوات ١٩٨٣-١٩٩٢. تناول الأستاذ الدنان (٢٠١٠ ص. ١٠٠) تطوّر اللغة العربية، أو بالأحرى تراجع استعمال الفصحى بعد القرون

الأولى الهجرية وبيّن كيف بدأت بالتلاشي في حديث الناس وكيف حل محلّها اللهجات التي انتشرت في البلاد متباعدة عن بعضها البعض؛ وأصبحت الفصحى لغة الكتاب والعلم والتعليم، فيقول إنّ "إتقان اللغة العربية بالنظرة والممارسة قد توقّف، وحلّ محلّه تعلّمها عن طريق حفظ قواعدها من نحو وصرف." ثم قال "منذ ذلك التاريخ ارتبطت تعلم اللغة العربية بالكلام المكتوب دون الممارسة الشفهية إلا في القليل، وهذا القليل محصور في حلقات علم محدودة." وهكذا تطوّرت الأمور شيئاً فشيئاً، فوقعت اللغة العربية في ظاهرة الازدواجية.

لكن ليس الغرض من هذا البحث وصف ازدواجية اللغة العربية واستخدام النمطين منها، فقد كتبت الكثير عن هذه الظاهرة؛ إنّ هدفنا هو الطموح لإيجاد كيفية يُعالج بها إشكال الازدواجية وحلّ للمشاكل اللغوية والتعليمية والنفسية التي تورتها.

#### ٤. التخلّص من الازدواجية

يقول الأستاذ محمّد راجي الزغول (رحمه الله) مُدكراً بمواقف بعض المفكرين والمحلّين لوجود ظاهرة الازدواجية: "لقد اعتبر الوضع الازدواجي في أية لغة أنه يشكل عوائق مختلفة للناطقين بتلك اللغة؛ كما اعتبره الكثير من الباحثين عائقاً للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي." ولا شك أنّ في ازدواجية اللغة العربية آثاراً سلبية على الطفل المتعلّم ونموّه الذهني، وإعاقة عن التطور في المجتمع العربي بشتى أنواعه من إنتاجات علمية واقتصادية ومن علاقات سياسية ودولية؛ فما السبيل

اكتسابها من قبل المتعلمين في الأطوار الأولى من حياتهم المدرسية. وعلى هذا الأساس نقترح رؤيتين لتفعيل حلول نظنها مناسبة للنهوض باللغة العربية الفصحى:

- اكتساب الفصحى لغة أم؛

- تعليم وتعلم العربية الفصحى كلفة شبه ثانية في الأطوار المدرسية الأولى.

#### ٤١١ اكتساب الفصحى لغة أم

إنَّ اكتساب لغة الأم خلال السنوات الأولى من العمر عملية شاملة عفوية تحدث دون وعي بقواعد اللغة وتراكيبها من قِبَل الطفل أو الوالدين؛ فقد بيّنت النظرية الفطرية (تشومسكي ١٩٥٧) أنه إذا كان لتقليد الأم والبيئة القريبة من الطفل دور في اكتساب الأولى كما يرى السلوكيون، فيستحيل أن يتحقّق إدراك القواعد المعقّدة والبنية التحتية للجملة عن طريق المحاكاة، فإنّ إنتاج العدد غير المتناه للجمال الصحيحة بما فيها التي لم يسمّعها الطفل من قبل يحصل بدون تعليم متعمّد وبدون وعي منه وتلقّ منتظم كما يحصل في المدرسة؛ فكما قلنا في بحث آخر (٢٠١٤): "إنّ القدرة على فهم اللغة واكتسابها عملية بالغة التعقيد، والعجيب في الأمر أنه في المقابل تُكتسب تلك القدرة بكل سلاسة وعضوية في غضون السنين القليلة الأولى من عمر الطفل، ويتم ذلك من دون أن يشعر بقوانين النظام اللغوي." فموجب سهولة تعلم اللغة الأولى وما يُقابلها من تعقيد وتعقيد في بنيتها، اضطرّ اللغوي الأمريكي تشومسكي (Chomsky) (١٩٦٥) إلى افتراض وجود جهاز في الدماغ موروث مستعد للاكتساب الفطري

وتوحيدها. إنَّ اللغات التي ارتقت بها الدول الغربية في العلوم المختلفة والتكنولوجيا وما إلى ذلك من تطوّر في شتى الميادين، إنّما هي اللغات الرسمية القياسية التي وُجِدَت بجعلها معيارية لتُوحد كل أمة كاللغة الإنجليزية في بريطانيا العظمى والفرنسية بفرنسا... وذلك بفرض استعمالها لا في المدرسة فحسب بل خارجها أيضاً وفي المحادثة اليومية وفي كل شؤونهم. لكن ليس الانتقال من العامية إلى اللغة المعيارية بالأمر السهل الهين عند شعوب أُنوا لهجاتهم المختلفة التي اكتسبوها بالفطرة والسليقة! إلاّ أنّه قد تحقّق عند الغربيين كما نعلم؛ فلم لا يتحقّق عندنا؟ فمن جواب هذا السؤال هو أنّنا لا نفعل ما يجب فعله بغرض توحيد الأمة العربية بالرجوع إلى اكتساب اللغة العربية الفصحى فطرياً - أو على الأقل إلى نمط يكون قريباً منها - واستعمالها في شؤوننا العامّة والخاصّة؛ بل ينقصنا الوعي بأهميّة هذا الأمر والعزيمة على تغيير الوضع. فمنذ قرون مضت لم يفعل العرب شيئاً جاداً للحد من تفتت لهجاتهم وتشعبها المتواصل عبر الزمان والمكان، وبقيت اللغة العربية الفصحى سجيناً الكتاب أو الخطب في المساجد أو الجرائد والمجلات. ويبقى العقل العربي عامّة يفكر بمستوى متوازٍ مع التعابير اللفظية التي لا تسمح بالارتقاء الذهني والفكري. إنّ من الشروط الضرورية لتفعيل اللغة العربية الفصحى واستعمالها في المحادثة اليومية التوعية العامّة بهذا الشأن، والإرادة القويّة عند الأفراد والجماعات، والحث على إكسابها بسياسة لغوية صارمة وحكيمة في نفس الوقت، ومناهج محكمة لتسهيل

للتخلص من هذا الوضع اللغوي وتأثيره على العقل العربي والمجتمع؟ إذا كان القرار في دولة اليونان قد اتّخذ لصالح اللهجة العامية ديموتيكي (Demotiki) وترقيتها بهدف التخلّص من الازدواجية وذلك بترك اللغة القديمة كاثاريفوزا (Katharevousa)، فاللغة العربية الفصحى كل المؤشرات لبقائها ثابتة الأركان عبر العصور لا كونها لغة الإسلام فحسب؛ فلا ننسى أنّ الذي رفع شأنها هو القرآن الكريم، كتاب الله الخالد الذي أنزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ كما قال الله تعالى في سورة الشعراء (الآية ١٩٥). بل إنّ العربية الفصحى أبهرت علماء اللغة قديماً وحديثاً بنظامها المحكم وغزارة ألفاظها ومعانيها ممّا يسمح لها بالتعبير بدقّة عن كل ما يخطر بالبال وفي كل المجالات العلمية والتعليمية والأدبية والفلسفية؛ فهي تتضمّن كل ما نحتاج إليه من مناهج راسخة للنهوض بأهلها والرفق بهم في العلم والمعرفة حتى بعد السبات الذي أصاب العرب في هذا العصر جرّاء تخليهم عن العلم وتقهرهم. ولن يتأتى هذا الرقيّ عن طريق اللهجات العامية المختلفة التي تُعيق الفرد والجماعة في الوطن العربي. يصف الزغول (٢٠٠٨:١٢) العامية كما يلي:

"إنه النمط الذي ازدهر بانتشار الأمية وغياب التعليم وتطور متجهاً نحو التبسيط والبعد عن أي تعقيدات في الصوت والنطق والصرف والنحو واختيار الكلمة."

ولا يمكن لتلك اللهجات المختلفة أن تلعب دوراً هاماً في تطور الأمة ناهيك عن التواصل الفعّال بين الدول العربية وأقوامها

يتعلمون الفصحى ويتحدثون بها شبه عفوية، رغم أنهم اكتسبوا اللهجة العامية في المحيط العائلي. وهذا ما نستطيع فعله الآن ونأمل إنجازَه في الأمد القريب، كما سنرى فيما يلي.

## ٤,٢ تعليم وتعلم العربية الفصحى كلغة شبه ثانية

من أهم الفروق بين اكتساب اللغة الأولى ولغة ثانية هو أن المستوى المتوصل إليه في النظام اللغوي المكتسب فطرياً هو نفسه عند كل الأطفال في جماعة لغوية معينة، في حين أن متعلمي اللغة الثانية يصلون إلى مستويات مختلفة في مسيرتهم من الضعيف إلى الممتاز، ذلك لأنهم تتعاملون مع قواعد اللغة ونظامها بكل وعي وشقاء عند التحصيل. وبعبارة أخرى، إذا كان النجاح في اكتساب لغة الأم عملية طبيعية ويتوصل إليه كل طفل بنفس الدرجة من دون وعي منهم، فإن اللغة الثانية لا تُكتسب إلا ببناء يُحدِثه حفظ القواعد النحوية والصرفية والمفردات مع المعاني، ولكل فرد مستوى يتوصل إليه حسب الظروف المختلفة منها طريقة التدريس، درجة ذكاء المتعلم وقوة الحافز لديه.

إلا أن علماء اللغويات التطبيقية يبنوا - على أساس النظرية التشومسكية التي تقترض وجود عموميات في تعليم اللغات - أن اللغة الأولى تلعب دوراً هاماً في اكتساب اللغة الثانية، لدرجة أن باحثي اللغويات التطبيقية يستعملون المصطلح 'اكتساب في الحالتين' من تعلم اللغة. فإثناء تعلم اللغة الثانية، يعتمد المتعلم على نظام لغته الأم والذي يُعِينه خاصة عندما تكون أصوات

الجهاز الذي وهبه الله إياه يبدأ بالإلتقان في استعمالها واستيعاب نُظُمها دون شعورٍ منه بالقواعد المعقدة والتراكيب، وذلك خلال السنين الأولى من حياته. ومن جهة أخرى، سينمو ذهنُ الطفل بالتوازي مع القدرات اللغوية التي يكتسبها، ويكون نموّه المعرفي قوي بقرّة اللغة الفصيحة؛ وفي المقابل، يكون النموّ الذهني ضعيف الفهم ومحدود الإنتاج نتيجة عجز التعبير لدى اللهجة العامية. إن النظريات المعرفية تبيّن أن هذا الجهاز المفترض وجوده في الدماغ لا بدّ من ارتباطه بالنمو المعرفي والفكري؛ ويؤكد العالم النفساني السويسري جان بياجيه (Jean Piaget) أهمية النمو العقلي والتطور النفسي عند الطفل قائلاً: ٦:

”...إن النمو العقلي خلال الثمانية عشر شهراً الأولى من الحياة يكون سريعاً جداً وذا أهمية خاصة لأن الطفل في هذه المرحلة يُصمم جميع البنية التحتية المعرفية التي من شأنها أن تكون بمثابة نقطة انطلاق لإنشاء الإدراك الحسي والفكري في وقت لاحق...”

فباكتسابه فطرياً لغة واسعة المفردات وعميقة المعاني كالعربية الفصحى، يصل الطفل إلى سنّ المدرسة برصيد لغويّ وفير وإدراكٍ معرفيٍّ واسع يجعلانه يتفوق في تحصيل الدروس والعلم على الأطفال الذين لا يتعرّضون للفصحى إلا في السنّ الخامسة أو السادسة كما ثبت في تجارب الأستاذ عبد الله الدنان في مختلف الرياض للأطفال بسورية والكويت وقطر وبلاد عربية أخرى، وكما بيّننا في ملاحظتنا لتفوق وذكاء الأطفال الذين قضوا سنتين أو ثلاثاً في روضة تتبّعنا تطوّرهما هنا بتلمسان (الجزائر) ٧ حيث

للغة المحيطة بالطفل وأسماء جهاز اكتساب اللغة (Language Acquisition Device)، الجهاز الذي يختصّ به البشر لتعلم الكلام والتفكير، والذي أطلق عليه فيما بعد مُصطلح النحو العالمي (Universal Grammar)، تلك القدرة الفطرية على استخراج قواعد اللغة من دون تعليم منظم. وفي هذا السياق، يقول الأستاذ الدنان (٢٠١٠، ص ٩٢) مؤكداً دور هذا الجهاز وأهميته خلال اكتساب الطفل لغته:

”إن هذه القدرة تمكّنه من كشف القواعد اللغوية كفضاً إبداعياً ذاتياً، وكشف حدود المفردات، ودلالاتها المعنوية فهماً وإنتاجاً، وبالتالي إلتقان المحادثة باللغة التي يكلمها بها من حوله.”

إلا أن هذه القدرة الهائلة تبدأ بالتضاؤل والضمور بعد السنة الخامسة، وهنا يبدأ الإشكال عند الطفل العربي لما يتحقّق بالمدرسة حيث يواجه بلغة تختلف لحدّ كبير عن اللهجة التي يكون قد اكتسبها فطرياً؛ وعدم التطابق بين لغته الأم ولغة المدرسة يؤثر سلباً على فهم قواعد اللغة الفصحى والمعارف كالحساب والعلوم الطبيعية وما إلى ذلك، فيكون التحصيل بطيئاً وناقصاً بالمقارنة مع حال الأطفال الإنجليز أو الفرنسيين الذين يباشرون المدرسة ولهم رصيّد لغويّ هائل يجدونه متطابقاً مع لغة المعلمين، فيركّزون على تعلم مهارتي الكتابة والقراءة وقد اكتسبوا ملكة الاستماع والمحادثة.

فالتحدّي أمامنا هو كيف نجعل الطفل العربي ينمو في بيئة يكتسب فيها اللغة العربية الفصحى؟ لا شك أنه سينطلق بها من أول وهلة يسمعا حوله، ويفضل ذلك

على تطوره الذهني في مرحلة الطفولة المبكرة ويستمر في كل المراحل التي تليها. وقد أثبت ذلك الأستاذ الدنان في تجاربه حيث بين أن الأطفال الذين اكتسبوا العربية الفصحى انطلاقاً من السنة الثالثة من عمرهم تفوقوا بكثير على التلاميذ الذين لم يتعرّضوا للفصحى.

► أما بالنسبة للأطفال الذين تجاوزوا السن السادسة والتحقوا بالمدرسة دون أن يتعرّضوا بالقدر الكافي إلى استماع وممارسة فعلية للغة العربية الفصحى من قبل، فالعملية أصعب إذ يعتبرون الفصحى لغة المدرسة أو شبه لغة ثانية، ويجدونها مليئة بالقواعد المعقدة التي كثيراً ما تُدرّس بمناهج غير حيوية تُركّز على الحفظ والاستظهار. ومن جهة أخرى، وبحكم العلاقة الوطيدة بين لغة الأم والنمو المعرفي، فإن التعليم الابتدائي وما بعد ذلك بلغة غير مألوفة يجعل من التلميذ بطيء الاستيعاب للعلوم والرياضيات وما إلى ذلك من المواد المدرسة. وقد بيّنت البحوث في اللسانيات وعلوم التربية وعلم النفس أن لغة الأم هي أفضل وسيلة لتحصيل المعرفة أثناء الأطوار الأولى من التعليم المدرسي. ومن بين التوصيات الثابتة التي جاءت بها منظمة اليونسكو ما يلي: ٩

"من البديهي أن أفضل وسيلة لتعليم الطفل هي لغته الأم. نفسها، هي نظام من العلامات ذات معنى تعمل في ذهنه تلقائياً للكلام والفهم. اجتماعياً، هي وسيلة لإثبات هويته في المجتمع الذي ينتمي إليه. تربوياً، إنه يتعلم بسرعة أكبر من خلالها مقارنة بوسيلة لغوية غير مألوفة."

بالشكل الفصحى الذي يمكن للمستمع أن يفهمه بكل سهولة ويسر." (٢٠١٠ ص ٤٠). فيتساءل لم لا نفع ذلك، وقد تبين أن من السهل أن يكتسب الطفل اللغة العربية الفصحى، بالرغم من آراء الذين يزعمون أنها صعبة الاستيعاب بقواعدها ونظمها المعقدة. إنه لجديرٌ بالتذكير أن اكتساب اللغة - أياً لغة كانت - في السنين الأولى من عمر الطفل يتحقق بكل سهولة وبدون شعور بالقواعد التي يستوعبها الجهاز اللغوي المفترض. فعلى أساس النظريات الحديثة في اكتساب اللغة - الأولى والثانية - والتجارب المنجزة، نقترح الطريقتين الآتيتين بالنسبة للعربية الفصحى:

► أول طريقة نذكرها تخص الأطفال الذين وصلوا إلى السن الثالثة أو الرابعة من العمر وتتجلى في مواصلة اكتساب اللغة لكن بشكلها الفصحى وذلك بالحضور في روضة نشيطة؛ لكن بشرط أن يكون القائمون على البرنامج والمرشدين جادين في عملهم والذي يتضمّن هدفاً واحداً هو إكساب الطفل التعود على التحدث بالعربية الفصحى ثمّ الإتقان في استعمالها. لا عن طريق حفظ القواعد والألفاظ والعبارات، بل تماماً كما يكتسب لغة الأم بالممارسة والسليقة. ومن الجدير ذكره أن مشاركة أولياء الأطفال أو أقربائهم قدر الاستطاعة أمر هام لتكريس ما يتعلمونه في الروضة من كلمات وعبارات وحديث وترسيخها حتى يصير استعمالها عفوية. فإذا نشأ الطفل وهو يكتسب الفصحى كما يكتسب لهجته أو بالتوازي معها، فيعود ذلك بالإيجاب

أو تراكيب اللغتين متشابهة، ويتم ذلك عن طريق التحويل من نظام لغوي إلى الآخر كما يقول ليدو (R. Lado، ١٩٥٧: ٥٨) :

"نحن نعلم من ملاحظة الكثير من الحالات أن التركيب النحوي للغة الأم يميل إلى الإحالة إلى اللغة الأجنبية... ولدينا هنا المصدر الرئيسي للصعوبة أو السهولة..." ٨

فبالنسبة إلى حالة الازدواجية العربية، فجدير بالذكر أنه بالرغم من الفجوة بين العربية الفصحى والعامية - والتي سبق ذكرها بشيء من المبالغة - ، كلتا النمطين من أصول عربية؛ ففي لغته الأولى يجد التلميذ الكثير من السمات اللغوية التي تشبه ميزات لغة المدرسة - خاصة الصوتية منها والألفاظ - فيعتمد عليها تلقائياً أثناء تعلمه العربية الفصحى. إلا أنه يجد صعاباً كثيرة في بنية الجملة العربية وإعرابها وتصريف الكلمات؛ وكل ذلك بسبب تحرر العاميات عبر العصور من الأحكام اللغوية وكذلك نتيجة افتقارها إلى الرصيد الهائل من الألفاظ الدلالية والمعاني والمصطلحات المقترنة بالعلوم والآداب وما إلى ذلك، فتحوّلت إلى لغة محكية محدودة التعبير لا تُستخدم إلا للأمور العادية ولا تسمّع بالحديث عن قضايا علمية وأمور ذات أهمية كالتعليم والسياسية...

إذن، إذا علمنا أن باستعمال اللغة الفصحى يرتقي أطفالنا وشبابنا والمجتمع ككل إلى درجات أسمى في المحادثة والتواصل بهذه اللغة ثمّ التفكير والإبداع، أين هي الحلول وما السبيل إلى تطبيقها ؟ يقول الأستاذ الدنان "إن الكلمات كلها المنطوقة بالشكل العامي يُمكن نطقها

(UNESCO 1952: 11).

ولكن ليس اكتساب السلاسة والفضاحة مستحيلًا خلال هذه السنين، وقد أثبتت بعض البحوث أنّ اكتساب لغة ما يبقى سهلاً نسبياً حتى السنّ الثانية عشر أو الثالثة عشر حيث تنتهي الفترة التي يُطلق عليها علماء تعليمية اللغات واكتسابها مصطلحَ الفترة الحرجة (Critical Period Hypothesis). فإذا تجاوزها المتعلّم فلا يستطيع أبداً أن يُحقّق السيطرة الكاملة على اللغة. وبإمكاننا ذكرُ المقولة المشهورة عند العرب "التعلّم في الصغر كالنقش على الحجر" فمن المعروف مثلاً أنّ حفظ القرآن أسهل بكثير أثناء الطفولة.

وكذلك يكون الأمر بالنسبة إلى تعلّم اللغة العربية الفصحى: يسيراً على الطفل دون الخامسة وعسيراً كلّما كبر الفرد في السنّ. فكما أسلفنا الذكر، يصعبُ اكتساب العربية الفصحى في المدرسة على التلاميذ الذين لم يسبق لهم أيّ تعرّض لها من قبل. إنّ أنّه توجد طرائق حديثة لتعليم اللغات منها التواصلية مع استخدام الوسائل التكنولوجية المختلفة كالسمعية/البصرية. فيمكن للطفل أن يصل إلى مستوى جيّد في الأداء واكتساب ملكتي الفهم والمحادثة،

خاصّة إذا كان هناك تعزيز لممارسة اللغة خارج المدرسة مع الأصدقاء مثلاً وأولياء في البيت. إنّما تحتاج هذه العملية إلى إرادة قويّة لإخراج الوضع من إشكال الازدواجية، ولا يتأتى هذا فعلاً إلاّ بتجنيد كلّ من له طاقة من مربيين ومعلمين وأولياء، ويوجّه النداء أيضاً وبالأخصّ إلى ذوي القرار والتخطيط السياسي في البلاد العربية لوضع خطة محكمة هدفها تقليص الفجوة بين اللغة الفصحى واللهجات ممّا يوحد الأمة العربية بإذن الله عن طريق التواصل العفوي بهذه اللغة العظيمة.

## ٥. الخلاصة

أملنا في الأمد البعيد - أو حتى القريب إذا كنّا جادّين - هو تحقيق ما حقّقته غيرنا من الأمم الأوروبية ودولّ أخرى، ألا وهو إكساب أطفالنا اللغة المعيارية لغةً أولى أو على الأقلّ نمطاً قريباً منها، فبذلك يبدأ تقلّصُ فجوة الازدواجية ويصل الطفل إلى سنّ المدرسة مزوداً بقدرات لغوية فصيحة تسمح له بتحصيل العلم واستخدامه أداة نفاذ إلى المعلومات والمعارف التي تقود إلى التنمية والتطوّر. فإنّ ازدواجية اللغة العربية هي التي تُسبّب الارتباك عند الطفل لما يلتحق بالمدرسة

وبذلك يبقى تدنّي المستوى عند التلميذ والطالب ولا يستطيع المجتمع العربي الرقي والتقدم إلا بالرجوع إلى اللغة المعيارية الرسمية، لا في الكتابة والمواقف الرسمية فحسب بل في المحادثة بها في كلّ الأمور.

فالذي نقتحره في هذا المقال هو أن يتعلّم الطفل العربي لغةً الأمّة وليس لغةً الأم وذلك لثلاث سنوات قبل الالتحاق بالمدرسة فيكون عنده مهيةً لاكتساب المزيد من العلم في المدرسة حيث يشتغل بتعزيز نموّه المعرفيّ وذكائه عوض اشتغاله بتعليم لغة تكاد تكون غريبة عنه. وكما صرّحنا في مقالنا (٢٠١٢)، "إنما غاية هذا العمل هو أن تُصبح العربية الفصحى اللغة الأمّ لكلّ عربي كما أنّ اللغة الإنجليزية المعيارية هي اللغة الأولى للملايين من المتكلمين في بريطانيا والولايات المتحدة وغيرها من البلاد."

وكما أسلفنا الذكر، إنّ الازدواجية العربية أصبحت عائقاً للتطور بكل أبعاده ولا مجال للخروج من هذه الدوامة إلاّ يوم يتخلص العالم العربي من ثباتها الحالي فتصبح العربية الفصحى لغة التعامل اليومي، أو على الأقلّ نمطاً للغة لا يكون بعيداً عنها.

## المراجع العربية

الزغول، محمد راجي. (٢٠٠٨) "ازدواجية اللغة" - جامعة اليرموك، الأردن.

الأفغاني، سعيد. (١٩٧١). من حاضر اللغة العربية. دار الفكر - دمشق.

بدوي، س. م (١٩٧٢) مستويات العربية المعاصرة في مصر: بحث في علاقة اللغة بالحضارة. القاهرة: دار المعارف بمصر. ص ٧-

١٦.

الدنان، عبد الله (٢٠١٠). نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفترة والممارسة: تطبيقاتها وتقويمها وانتشارها. دار البشائر؛

دمشق- سوريا.

دندان، ز. (٢٠١٢) "اللغة العربية، إشكال الازدواجية والتعليم الرسمي" المؤتمر الدولي الثاني - اللغة العربية في خطر: الجميع

شركاء في حمايتها - دبي ٧-١٠ ماي ٢٠١٣.  
دندان، ز. (٢٠١٤) "اللغة العربية الفصحى والنمو المعرفي" المؤتمر الدولي الثالث - الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني  
والعربي والدولي - دبي ٧-١٠ ماي ٢٠١٤.

### References

- BADAWI, E. ١٩٧٣. *Mustawayāt al 'arabiyya al-mu'āsira fi miṣr. baḥṡ fi 'alāqāt alluġa bi-l-ḥaḍāra* [Levels of modern Arabic in Egypt. A study of the interaction of language and civilization]. Cairo: Dar al-Maārif.
- CHOMSKY, N. ١٩٦٥. *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge: The MIT Press.
- COLIN G. S. ١٩٤٥. « Les parlars ». *Initiation au Maroc*. Vanoest. Paris. pp. ٢٤٧-١٩١.
- FERGUSON, C.A. ١٩٥٩. "Diglossia" in HUEBNER, T (Ed. ١٩٩٦). *Sociolinguistic Perspectives: Papers on Language in Society*. Oxford University Press; New York.
- LADO, R. ١٩٥٧. *Linguistics across Cultures*. Ann Arbor. University of Michigan Press.
- MARCAIS, W. ١٩٣٠ « La diglossie arabe », dans *l'Enseignement public*. In *Revue pédagogique*. tome ١٠٤, n° ١٢. pp. ٤٠٩-٤٠١.
- PIAGET, J. & INHELDER, B. ١٩٦٦. *La psychologie de l'enfant*. Paris PUF.
- SOTIROPOULOS, D. (١٩٧٧) "Diglossia and the National Language Question in Modern Greece".

### الهوامش

- ١ انظر في كتاب عبد الله الدنان، (٢٠١٠). نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة: تطبيقاتها وتقويمها وانتشارها.
- ٢ Fernandez, M. (١٩٩٣). *Diglossia: A Comprehensive Bibliography ١٩٩٠-١٩٦٠ and Supplements*.
- ٣ ترجمة الدكتور أحمد راجي الزغول في مقاله (١٩٨٢) "ازدواجية اللغة: طبيعتها ومشكلاتها في سياق التعليم".
- ٤ « Ni l'arabe classique ni l'arabe vulgaire ne semblant permettre actuellement de résoudre à eux seuls le problème linguistique marocain. une troisième solution se présente : la diffusion du français. et son emploi par les Marocains comme langue de culture. » (G.S. Colin ١٩٤٥:٢٤٤)
- ٥ بدوي السعيد (١٩٧٣) مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر
- ٦ « [...] le développement mental au cours des dix-huit premiers mois de l'existence est particulièrement rapide et particulièrement important. car l'enfant élabore à ce niveau l'ensemble des substructures cognitives qui serviront de point de départ à ses constructions perceptives et intellectuelles ultérieures »
- ٧ انظر في المقال: دندان، ز. (٢٠١٤) "اللغة العربية الفصحى والنمو المعرفي" المؤتمر الدولي الثالث - الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي - دبي ٧-١٠ ماي ٢٠١٤.
- ٨ "We know from the observation of many cases that the grammatical structure of the native language tends to be transferred to the foreign language... We have here the major source of difficulty or ease..." (Lado, ١٩٥٧:٥٨).
- ٩ "It is axiomatic that the best medium for teaching a child is his mother tongue. Psychologically, it is the system of meaningful signs that in his mind works automatically for expression and understanding. Sociologically, it is a means of identification among the members of the community to which he belongs. Educationally, he learns more quickly through it than through an unfamiliar linguistic medium." (UNESCO ١٩٥٣, p. ١١).